مفهوم الفحولة بين الأصمعي وعبد الله الغذّامي

د.انصاف سلمان علوان

كلية التربية للعلوم الانسانية

تعد الفحولة الشعرية من مظاهر النقد في مرحلة بدأ التدوين في القرن الثالث الهجري ، إذ كان الأصمعي المنظر الأبرز لهذه الفحولة ،والتي من وجوهها القوة ، فالحركة الحضارية التي كانت تحكمها ثقافة القوة الرجولية المطلقة هي المؤثر المباشر في اختيار الأصمعي مصطلحه النقدي ،فكل شاعر وقع عليه الاختيار لايكون فحلاً وتنطبق عليه شروط الفحولة الشعرية أن لم يكن شعره قوياً في بنائه ومعانيه ، وهذا ماجعل الأصمعي يقصر الفحولة على شعراء العصر الجاهلي وليس شعر العصر الإسلامي ،الذي استبعده لأنه لان بعد الدعوة الإسلامية ، وقد سبق كل من الجمحي والأصمعي الجاحظ بقوله (أن العرب تقسم الشعراء إلى طبقات ، فأولهم الفحل الخنذيذ ، والخنذيذ هو التام)[1] ألا أن الأصمعي كان أكثر دقة وتنظيراً في تحديد مستويات الفحولة وفي تمييز الشاعر الفحل من غيره من الشعراء ، ومن ثم ، كان المرجع الأساس في تحديد الفحولة الشعرية . وبقي موضوع الفحولة مدار اهتمام النقاد قديماً وحديثاً ، وعلى نهج الأصمعي سار كثير من الأدباء والقراء ونقاد الشعر حتى صارت الكلمة ملازمة لجودة الشعر ومعيارا له ،ولم يكن اختيار الأصمعي للمصطلح ليأتي من فراغ لو لم تكن الثقافة هي المعيار الأبرز والمؤسس في تحديد القيمة في المخيلة الجمعية للمجتمع العربي،التي كانت تحكمها ثقافة القوة الرجولية المطلقة التي جعلت من المرأة كائناً تابعاً وليس مشاركاً في صنع الحياة وبناء المجتمع ، وعليه فمن البديهي أن يسقط الأصمعي عن قصد شعر النساء ، فقد كان يصف شعر الشاعر أذا كان رقيقاً أو ليناً بأنوثة الشاعر منكراً عليه الفحولة ٠

بين اللغة والاصطلاح:

لدراسة مفهوم الفحولة عند الأصمعي لابد من الوقوف عند المعنى اللغوي والاصطلاحي ومراتب الفحولة وطبقاتها لديه٠

***المعنى اللغوي:**

جاء في لسان العرب (الفحل معروف :الذكر من كل حيوان ، وجمعه أفحل وفحول وفحولة وفحال وفحالة مثل الجمالة ، قال الشاعر : فحالة تطرد عن اشوالها ٠ قال سيبويه: الحقوا الهاء فيهما لتاء التأنيث الجمع ، ورجل فحيل :فحل ، وانه لبين الفحولة والفحالة والفحلة)[2]٠

فالفحل إذن هو الذكر من كل حيوان ،فإذا كانت الكلمة تطلق على الذكر من كل حيوان وليس الإنسان فما الذي يجعل شاعراً معني بخلق الصورة الشعرية أن يكون فحلاً ؟

*** المعنى الاصطلاحي:**

يعود تاريخ المصطلح إلى طريقة النقاد الأوائل في تخير الألفاظ الملائمة للبيئة البدوية التي أنتجت الشعر الجاهلي، وهو ما كان فضاء اشتغال الأصمعي في فحولته ٠التي اشترط لها القوة المناقضة لصفة اللين،وقد كان الأصمعي لايتقيد بشروط محددة لما في ذهنه عن مفهوم الفحولة ،وهذا ما دعا أبو حاتم الراوية يسأله عن معنى الفحل فأجابه (ماله مزية على غيره كمزية الفحل على الحقاق)قال:وبيت جرير يدلك على هذا :

وابن أللبون إذا ما لزّ في قرنٍ لم يستطع صولة البزل القناعيس[3]

ومعنى البيت:ابن أللبون ولد الناقة إذا كان في العام الثاني وصار له لبن ٠ بزل:والبازل من الإبل ما بلغ التاسعة من عمره واشتد فهو بزل ، والقناعيس :الشداد المناع ٠

ويتجلى لنا من هذه الإجابة أن الفحولة صفة تعني التفرد لدى الشاعر وهذا يتطلب ثلاثة أمور هي في سيرته الشعرية :

الأول: أن يكون شعره دالاً على القوة العالية التي تميزه عن سواه أي(أن يحقق تفرداً في إشعاره إبداعا وتكويناً ، وهذا التفرد لايكون لصغار السن من الشعراء الذين لقبهم الأصمعي(ابن أللبون) إذا ما تعرض لشدة أو امتحان ظهر عجزه عن الإتيان بما يأتي به فحول الشعراء الذين نبتت لهم أضراس العقل أو النضج) ٠

والثاني:هو الطبع بمعنى الموقف من إشعار الشاعر بعد إبداعها ، وإلا فالشعراء المشهورون مطبوعون ،بمعنى الموهبة الشعرية٠

والثالث:أن يكون الشاعر فوق تحقيق السمة قادراً على التأثير بالشعراء ،فيأخذون منه كما تأخذ الإناث من فحلها فتنجب اغلبها منه ،فإذا لم يكن له اثر واسع في الشعراء في زمنه وفي الأزمنة اللاحقة لم يحكم له الأصمعي بالفحولة ٠[4]وفحولة الشاعر لدى الأصمعي لاتعني أن تكون في ميزان الجودة أو الرداءة وإنما (الجودة والرداءة تأخذ موضعها في ترتيب الشعراء بعد تحقق شرط الانتماء إلى طبقة ما وهي هنا عند الأصمعي تجتمع على الفحولة ،ويخبط خبط عشواء من يقرن الفحولة بجودة إشعار الشاعر ،إنما الفحولة مزية ذكورة وطاقة كمزية الفحل على الحقاق اللواتي يطلبن الفحل لأول مرة ويشعرن بفضله عليهن بطاقته واقتداره)[5] ٠

---

١ تاريخ النقد الأدبي عند العرب، إحسان عباس،٣٦ ٠

٢ ـ لسان العرب ،ابن منظور ، الجزء الخامس ، مادة فحل ٠

٣ ـتاريخ النقد الادبي عند العرب ، احسان عباس ، ٣٦ ٠

٤ ـ ينظر : فحولة الشعراء للاصمعي ، عبد الكريم محمد حسن ،٥١ ٠

٥ ـ م ن ، ٤٩ ٠

* مراتب الفحولة :كان لمفهوم الفحولة عند الأصمعي أوجه متعددة ، وكان يعتمد في ذلك على قناعته بشعر الشاعر الذي يخضعه لميزانه ، لذلك وجدنا لهذه الفحولة المتباينة عند شاعرٍ واخر توصيفات مختلفة وحسب رأي كل ناقد درس الفحولة الشعرية للاصمعي ومنهم من أطلق عليها مرتبة [1]ووصفها الدكتور محمود الجادر (فصيلة)،وقد وردت بصيغ متعددة ٠ وأكملها صيغة

*أول الفحول : وقد جعل امرئ ألقيس أول الفحول بعد أن تردد في الاختيار بينه وبين النابغة الذبياني ،ثم رجح كفة امرئ ألقيس معللاً اختياره إلى ان امرئ ألقيس قد سابق الشعراء إلى إبداع أشياء استحسنها العرب وقبلتها عنه ، واتبع الشعراء مذاهبه فاكتملت له وسائل التقدم وأركان الفحولة تامة لديه) ٠

* رأس الفحول :لكل قبيلة عربية فحول،ولفحول كل قبيلة رأس فمثلاً رأس فحول ربيعة المتلمس (فاعتماده رأساً قد يكون في نوعية الطاقة وليس في غزارتها ، وقد يكون فيهما معاً)[2] ، ويعد رأس الفحول أدنى مرتبة من أول الفحول ،فهو رأس في فحول قبيلته ،وينحصر إبداعه وتفوقه في نطاق فحول قبيلته ٠

*فحل من الفحول :ومن كان في هذه المرتبة هو أدنى من رأس الفحول ، ومن الشعراء الذين جعل الأصمعي لهم صفة فحل من الفحول أعشى همدان ، وأعشى باهلة ، ومالك بن الجريم ٠

* لحق بالفحولة:ومن كانت لديهم طاقة شعرية هي أدنى من طاقة من سبقهم من الشعراء في المراتب العليا ليتصدروا ركب الفحولة ولكنهم لحقوا بالفحولة٠

*أشباه الفحول: وشبيه الفحل (مايشاكله في اللون والصفة ،ويختلف عنه في الحقيقة طاقةً ومقداراً على مايبدو من تماثل بينهما في اللون والصفة)وقد أعطى الأصمعي هذه الصفة للشاعرين :الأسود بن يعفر النهشلي ،وجرادة بن عميلة العتري) ٠

*فحولة بالظن :لعل لفظة الأصمعي (لاستيقنه) يتطابق مع رأيه في أشباه الفحول ،ولكن السبب في نفس الأصمعي لم يقتنع بشاعرية أولئك الشعراء الذين تناول شعرهم بالدرس ،لذلك لم يحصلوا على فحولة تامة ،وكل ما حصلوا عليه ظن بالفحولة٠

*ثم هناك الفحولة المنقوصة ،ونفي الفحولة ،والمسكوت عن فحولتهم ،ثم فحولة القصيدة ٠ والشعراء الذين جعلهم الأصمعي منقوصي الفحولة ، هم الذين حققوا الفحولة في قصائد محددة ،ولكنهم لم يحققوا شرط الفحولة في مجمل نتاجهم ،وقد نفى الأصمعي الفحولة عن بعض الشعراء من غير أمنية ،كما نفى الفحولة عن آخرين بأمنية ٠وقد نفى الفحولة عن الشعراء الصعاليك وأبعدهم عن الرتب المتقدمة ، وقد جعلهم في طبقة متفردة في ذاتها ،لكنها فوق مؤنث الشعراء [3] ٠

الطبقات :

لم يصرح الأصمعي بالطبقة ، فقد كان قصده ضمني ، مفهوم من السياق ،فأشار خفيةً وشبه جهراً إلى الطبقات الآتية :

* طبقة الجاهليين ، *طبقة الإسلاميين ،*والفحول ،*وأصحاب الموضوع الواحد :الكرم –الجانب الاجتماعي (السلم والحرب) ، *وأصحاب الفن الشعري الواحد ، *والرجاز ، *واللصوص مع الصعاليك ، *والفرسان ،*وأهل الفصاحة والاحتجاج ،*وشعراء القرى ، *وشعراء القبائل العربية ، *والمغلبين من الشعراء ،*والمفلقين من الشعراء٠ [4]

لو أمعنا النظر في طبيعة مجتمعاتنا العربية ، لوجدنا إننا حتى هذه اللحظة على الرغم من التغيرات التي طرأت على هذه المجتمعات التي نستطيع أن نعد معظمها ايجابية كونها معنية بتحسين الدخل الاقتصادي للفرد وما ينبني عليه من تحسن ولو نسبي في الجوانب الأخرى ، لوجدنا إن هذه المجتمعات لم تنضج حتى ألان النضج الكافي الذي يوحي بأن شعوبها تحررت من سيطرة التراث الشرقي القديم والعادات البالية ،وان هذا العقل مازال محكوماً ببنى لاواعية تسيطر عليه من الطبيعي إن يعجز عن كسر قيود التطرف الاجتماعي في تعاطيه مع مسألة الفحولة ، وفي إبراز دور ملائم للمرأة ليس فقط في الشعر وإنما في مجالات الحياة جميعاً، فما زلنا نعيش بأفكار البيئة نفسها التي استمد منها الأصمعي مفهومه عن صفات الشاعر الجيد (الفحل)، لان هذا المفهوم لم يزل إلى الآن منذ النشأة الأولى للمجتمعات البدائية التي اعتمدت التقسيم على أساس الجنس ولان ذلك المقياس كان يعتمد على من يمتلك القوة العضلية ، ومن هو قادر على الصيد وعلى حماية القبيلة ، ولكن حتى مع تلاشي مقياس القوة لم يزل تراث الأجداد يحتل حيز العقل الرجولي العربي ، ولم تزل نظرته وممارساته ، وربما حتى أدبه في بعض الأحيان يشعر المرأة بتلك النظرة الدونية لها [5]. حقيقة المشكلة هي اجتماعية تربوية بالدرجة الأولى، وهناك خلل كبير في الطريقة التي ننشى عليها أبناءنا،وهذا الخلل يبدأ من الطفولة ومن السياسات الخاطئة التي ننتهجها في التربية للتميز ما بين ذكر وأنثى ،ذلك النوع من التربية الذي كان ضرورة تتطلبها الحياة التي كان يعيشها المجتمع الجاهلي الذي هو في حروب دائمة وبحاجة إلى رجال يعرفون جيداً أنهم رجال أكفاء وفحول تستطيع القبيلة الاعتماد عليهم في الحروب والمنازعات التي كانت دائرة بين القبائل ، إما في هذا الوقت فإننا أحوج ما نكون إلى بناء مجتمعات متحررة من القيم والمعتقدات التي أصبحت قديمة ولا تتلاءم و متطلبات المرحلة الحالية ، ولكننا على الرغم من ذلك نجد أنفسنا ندور في حلقة مغلقة فما كانت تؤمن به الجدة علمته للام والإم بدورها علمته للابنة وهكذا نعيد إنتاج أنفسنا وأفكارنا كأنها كنزٌ ثمين يجب المحافظة عليه دون تأثر بثقافة أو دراسة أو حضارة وهذا ما تفعله المؤسسات التعليمية (إعادة إنتاج ذاتها ٠٠انها تعيد إنتاج المعلمين والممتحنين الذين يعيدون إنتاج الناس على غرار أنفسهم) [6] ٠

والمرأة هي نتاج مؤسسة الجدة و الأم وطرقهم في التربية التي صنعت الفحل في تربيتها للذكر على انه كائن مميز وله السلطة المطلقة في مجتمعه بدأً من البيت في تسلط على إخوته الإناث حتى وان كنّ اكبر منه عمراً ومروراً بوالدته التي تأخذ الإذن والمشورة منه عند غياب والده وانتهاءً بزوجته وبناته ، فالمرأة هي التي تربي لكي تقهر وتستعبد ، وفي مقابل ذلك وفي تربيتها للأنثى ، نجد هذه الأم التي صنعت الفحل وأعلت من شأنه تحاول أن تصنع نموذجاً منكسراً لامرأة لاقدرة لها على إدارة شؤون نفسها إلا بتابعيتها للرجل

---

[1] ـ م٠ن٠ ٤٩ ٠

[2] ـ فحولة الشعراء عند الاصمعي، د٠عبد الكريم محمد حسين،٥١

[3] – م٠ ن ، وينظر : دراسات نقدية ، د٠ محمود عبد الله الجادر ، ٣٤٨

[4] ـ فحولة الشعراء عند الاصمعي ، د٠ عبد الكريم محمد حسن،٤٧

[5] ـ طرائق الحداثة ،رايموند وليامز ،نقلاً عن مجلة الاقلام ،٣٧ ٠

[6] ـ دوائر الخوف ، نصر حامد أبو زيد ، ٣١ ٠

سواء كان أخاها أم أباها ، وان غاب هذان الدوران ، فالبديل هو العم أو ابنه لتنتقل الصلاحيات بعد ذلك إلى زوجها ، فمن أين أتت هذه الثقافة ؟ وما الذي جعل الأصمعي يتخير مصطلحه النقدي من بيئة لم يعش فيها وبينه وبينها أكثر من قرنين ونصف من الزمن ؟

ثقافة ذكورية

في قراءة المعنى اللغوي المباشر للكلمة نجدها لاتعدو كونها كلمة عادية تصف مرحلة من مراحل نمو الذكر من الحيوان يتسم فيها بالقوة والنشاط والحيوية . لكن المدلول الاصطلاحي للفحل تجاوز هذا الأمر إلى النقطة التي تتشكل فيها ثقافة الناس على وفق مفردات بيئتهم ، ليتحول إلى (إيقونة تمثل الاكتمال ،والعلو،..الخ من القيم الايجابية له ،فانه يفعل ذلك من خلال سلب هذه القيمة وتكريس نقيضها لدى سواه ، فتصبح فحل الوصف الأعلى للشاعر / الرجل /القوي ...الخ ، في مقابل اللافحل ،المرأة /الضعيفة ...الخ ، التي لاتتماشى طبيعتها مع متطلبات الكمال في هذا المنحى)[1] .

*ويعود مصطلح الفحولة إلى(طريقة الخليل بن احمد في انتخاب الألفاظ الدالة على الشعر من طبيعة الحياة البدوية ، فالفحل جملاً كان اوفرساً يتميز بما يناقض صفة اللين التي يكرهها الأصمعي في الشاعر)[٢]، وعلى الرغم من القول إن الأصمعي ربط الفحولة بأن تكون الشاعرية ابرز صفة في الشاعر ، وبناءً عليه ،لم يصف شعراء مثل حاتم الطائي بالفحولة ، لغلبة الكرم على الشعر عنده ، وكذلك كان رأيه في شعر حسان ، وقد جعل صفة اللين عالقة بالموضوعات المتصلة بالخير والدين ٠٠٠٠فالليونة والانحياز إلى الخير مضادان للفحولة [٣]' ويرى الاصمعي أن الاسلام كبح جماح الشعراء ،فأصلح لهم آخرتهم وافسد عليهم اشعارهم حتى كان تحولهم من شر الجاهلية الى خير الاسلام اسقاطاً لفحولتهم [٤] ، إضافة إلى عوامل تحضر العرب بعد الرسالة الإسلامية .وقد عد أحسان عباس مفهوم الخير عند الأصمعي يعني (طلب الثواب الأخروي أو ما يتصل اتصالاً وثيقاً بالناحية الدينية ويقابله حينئذ دنيوية الشعر واتصاله بالصراع الإنساني في هذه الحياة ،فالليونة والانحياز إلى الخير مضادان للفحولة)[٤]فلا يرى الأصمعي للفحولة مكاناً إلا في شعراء العصر الجاهلي ، ربما لان تلك المرحلة غير مقيدة بدين أو مبدأ ، ثم إن الشعر الجاهلي استمد صفاته من تلك الحياة البدوية التي هو نتاج ثقافتها لكي تنتج الفحل ٠ على الرغم من التبدل الكبير الذي حدث في الحياة الفكرية بعد مجيء الإسلام واختلاط العرب بالأمم والثقافات الأجنبية فما زال من غير المقبول القول بأن هذه شاعرة فحلة على الرغم من ظهور أصوات شعرية عديدة ، (مثلما عجز نقدنا الشعري حتى الآن عن إنتاج مفهوم آخر يعبر بدرجة اشمل عن عبقرية الشاعر ويكون له نفس القوة)[٥]. فالخطاب العربي لم يستطع لحد هذه اللحظة التحرر من قيود الثقافة الذكورية التي تمارس تعسفها ضد المرأة وإنتاج خطاب منصف لكلا الجنسين وأقول لكلا الجنسين فلأن مصطلح الفحولة اضر بالرجل وخلق فجوة كبيرة بينه وبين شريكته في الحياة والمشاركة في تحمل أعباء تلك الحياة مثلما اضرّ بالمرأة وعمل على تحجيمها وقصر دورها على أمور محددة (وهذا أمر سنلاحظ امتداداً له على مستوى الخطاب السائد المعاصر حيث تعامل المرأة معاملة الأقليات من حيث الإصرار على حاجتها للدخول تحت حماية أو نفوذ الرجل)[٦]٠ وهذا الذات/ الرجل الذي طوع اللغة بما يناسب توجهاته المتحيزة ضد المرأة وهذا ما يحدث في المجتمعات العربية المغيب وعيها عن قصد على العكس من المجتمعات الأوربية التي استطاعت أن تتخلص من أسباب تخلفها عندما ثارت على الكنيسة وفندت كل المعتقدات التي أسهمت في تغييب وعيها مما أنتج خطاباً غير متحيز ومراعي لوجود الأخر عن قصد ٠وفي دراسة لنصر حامد أبو زيد عن تعامل المجتمعات الأوربية مع اللغة ،ففي بعض المجتمعات المعاصرة المتحدثة بالانكليزية على سبيل المثال ثمة وعي متزايد بأيديولوجية اللغة وبخطورة الخضوع لها ، هناك مثلاً محاولات لتحاشي الإشارة للإنسان بشكل عام بضمير المذكر He وذلك باستخدام الضميرين على سبيل التبادل She or He وهناك تحاشي استخدام صيغة المذكر أو المؤنث في الإشارة إلى الوظائف فلا يقال Chairman بل يقال Chairperson
ولا يقال Spokesman بل يقال Spokperson هذا الوعي الجديد لاوجود له على مستوى الاستخدام المعاصر للغة العربية)[٧]

٠وعلى نهج الأصمعي سار كثير من الأدباء وقراء الشعر ونقاده حتى صارت الكلمة أساساً لجودة الشاعر ، وبغض النظر عن تفاصيل الفحولة وشروطها ، ودرجاتها ، التي وضعها الأصمعي لقياس الشعر العربي التقليدي ، فالذي يهمنا هو إن معيار الفحل الذي تأسست عليه الثقافة العربية أحد أهم مفرداتها ،كان هو السائد وهو ما يتحكم في تحديد القيمة في المخيلة الجمعية للمجتمع العربي ، ومن ثم في تكوين مرجعيته الجمالية ،فإذا كان الأصمعي الناقد همه تمييز جيد الشعر من رديئه ، فهو لم يحدد كون الشعر المتناول للرجل وليس للمرأة لكنه خص به الرجل واغفل عن شعر المرأة ،مع قلته في القول والرواية ، أنها ثقافة تأسست على مفاهيم خاطئة وجائرة لتبقى الصورة الخاطئة ممتزجة معها النظرة الدونية للمرأة التي سادت في المجتمع بناءً على هذه الصورة فإذا كان (أهم معيار عند الأصمعي للفحولة هو الطاقة الإبداعية عند الشاعر فكان الأولى البحث عن معايير الإبداع في الشعر وليس في جنس الشاعر) [٨] . وكيف له إن يذكر شعر النساء في تصنيفه للفحولة إذا كان يصف شعر الشاعر إذا أصابه رقة أو لين بأنوثة الشاعر منكراً عليه الفحولة .

لكن الاتجاهات الجديدة في النقد ، وخصوصاً ما عرف بالنقد الثقافي ، لم تتوافق ومقاييس الأصمعي للشعر الذي اختزل جماليات اللغة في وصف استمد كل تفاصيله من بيئة عرفت بقسوتها وانحيازها للرجل على حساب المرأة ،لذلك عمد هذا النقد إلى محاولة تأسيس مفاهيم جديدة تتجاوز ما اتفقت عليه أدبيات النقد التقليدي في قراءة الشعر قراءة أصمعية وقياس شروط الفحولة عليه ، فهي ترفض في الأساس الميزان الذي يقوم عليه تصنيف الشعر إلى جيد ورديء ، فبينما يقوم التيار التقليدي المؤمن بمقياس الأصمعي عن الشعر على وضع الفحولة مفهوماً يعبر من

١ _ دوائر الخوف ، نصر حامد أبو زيد ، ٣١ ٠

٢ - تاريخ النقد الادبي عند العرب،٣٩ ٠

٣ - ثقافة الفحولة ، محمود ثامر القرني ،٣ ٠

٤ - دراسات نقدية ، د٠ محمود الجادر ، ٣٤٤ ٠

٥ ثقافة الفحولة ، محمود ثامر القرني ، ٣ ٠

٦ _ دوائر الخوف ، نصر حامد أبو زيد ، ٣١ ٠

٧ _ دوائر الخوف ، ٣١ ٠

٨ _ الفحولة حين تتحول الى احدى مقاييس الادب العربي ،مهند صلاحات ،٤

خلاله عن جودة الأداء الشعري ، يرى فيه النقد الحديث تكريساً للشعر كعالم ذكوري تغيب عنه المرأة ويخلو من مبدأ التقاسم والتشارك في الحياة والإبداع ، فلا سبيل للقول بأن هذه شاعرة فحلة [1] وبالتالي لاسبيل لان تكون المرأة مصدراً للشعر الجيد ، وكيف تكون مصدراً لأمر جيد وهي ليست موجودة فيه ومغيبة عنه تماماً ،فإذا كانت اللغة الحالية تتعامل مع المرأة بهذا المنظور ،فأنها لا (تعكس مستوى وعي الجماعة التي أبدعت تلك اللغة ، وعلى الرغم من أن الوعي لايتطور بمعزل عن اللغة ، ولا تتطور اللغة بمعزل عن تطور الناطقين بها ، فأن لكل من نمطي الوعي تأريخه المستقل ومساره المتميز وأحيانا ما يتصادم الوعيان تصادماً قد يؤدي إلى تغيير جوهري في بنية اللغة ، وقد يفضي إلى انتصار بنية اللغة بوعيها التقليدي على الوعي الجديد، وقد حدث في تأريخ اللغة العربية الذي هو تأريخ الجماعة المتحدثة بها ، وعي متميز تمثل في لغة القرآن التي خاطبت النساء كما خاطبت الرجال)[2].

نسق ثقافي

يشترط الناقد عبد الله الغذامي للنص الذي يقرأ قراءة من وجهة نظر النقد الثقافي أن يكون حالة ثقافية وهذه الحالة تتطلب مواصفات الوظيفة النسقية وهي :نسقان يحدثان معا وفي آن، في نص واحد أو في ماهوحكم النص الواحد ،وان يكون المضمر نقيض ومضاد للعلني ، فأن لم يكن هناك نسق مضمر من تحت العلني فحينئذ لايدخل النص مجال النقد الثقافي ،ولابد أن يكون جميلاً ويستهلك بوصفه جميلاً ، وأخيرا لابد أن يكون جماهيرياً[3] ، وبما أن مفهوم الفحولة تنطبق عليه معايير الغذامي فقد دخل في مجال النقد الثقافي ،فقد غيّب مفهوم الفحولة دور المرأة وأقصاها من الساحة ليس فقط الأدبية وإنما في مختلف مجالات الحياة وهو ما كان قناعاً في نظر الغذامي تختبئ من تحته الأنساق وتتوسل به لتعمل عملها الترويضي و(النسق هنا من حيث هو دلالة مضمرة فأن هذه الدلالة ليست مصنوعة من مؤلف ،ولكنها منكبتة ومنغرسة في الخطاب مؤلفتها الثقافة ومستهلكوها جماهير اللغة من كتاب وقراء ، يتساوى في ذلك الصغير و الكبير والنساء و الرجال والمهمّش و المسود) [4] . وقد كنا على مدى عقود من الزمن نستهلك الدلالات الخاطئة التي تؤلفها لنا الثقافة التي أضمرت الأنساق الخطيرة من دون دراية ، فهل هي مسألة متوارثة بالنسبة لنا بدون علم بالشيء؟ وهل نرث مفاهيمنا ونمارسها دون سؤال ؟

ويرجع الغذامي السبب في ذلك إلى أن النسق ذو طبيعة سردية ،يتحرك في حبكة متقنة ، ولذا فهو خفي ومضمر وقادر على الاختفاء دائماً ، ويستخدم أقنعة كثيرة وأهمها قناع الجمالية اللغوية ، وعبر البلاغة وجمالياتها تمر الأنساق آمنة مطمئنة من تحت هذه المظلة الوارفة ، وتعبر العقول والأزمنة فاعلة ومؤثرة .

وأد الفحولة

وعلى الرغم من حيل الثقافة وأنساقها تبرز نازك الأنثى بكل ماأوتيت من قوة الانثى لتحطم العمود الشعري الذي يعد أهم معاقل الفحولة في إبداعها شعر التفعيلة والتي اتخذها الناقد عبد الله الغذامي إحدى ركائز كتابه النقد الثقافي حيث يقول في خروجها على القصيدة العمودية(أن عمل نازك كان مشروعاً أنثويا من اجل تأنيث القصيدة ، وهذا لم يكن ليتم لو لم تعمد – أولا إلى تهشيم العمود الشعري وهو عمود مذكر ،عمود الفحولة . وقد أقدمت على ذلك ببصيرة تعي حدودها وتعرف حقوقها ، فأخذت نصف بحور الشعر – والنصف دائماً هو نصيب الأنثى . ولذا فأن نازك لم تطمع بما هو ليس حقاً لها – أخذت ثمانية بحور هي الرجز والكامل والرمل والمتقارب والمتدارك والهزج ، ومعها السريع والوافر . وتركت الثمانية الأخرى . وفي هذا الأخذ والترك علامات واضحة على مشروع التأنيث فالمأخوذ هو النصف ، والنصف هو نصيب الأنثى – كما أن البحور الثمانية المختارة تحمل سمات الأنوثة . من حيث كونها قابلة للتمدد والتقلص كشأن الجسد المؤنث الذي هو جسد مرن يزداد وينقص حسب الشرط الحيوي في تولد الحياة فيه وتمددها من داخله وانبثاقها منه ، ثم يعود فيتقلص وتستمر فيه سمات قبوله للزيادة والنقص وقدرته على النزف دون أن يفقد حياته – وهذه الصفة تتوفر في البحور الثمانية المختارة ، فهي بحور تقبل الزيادة والنقصان والتمدد والتقلص والتكرر عبر التصرف بالتفعيلة الواحدة زيادةً ونقصاً ، هي واحدة متكررة كحالة الجسد المؤنث إذ تنبثق منه أجساد وأجساد تتكرر ، كما أن هذه البحور الثمانية هي بحور شعبية متواضعة وقريبة ، فهي من الناس وللناس ، فيها البساطة والليونة والخفة . أما البحور الأخرى كالطويل والمديد والمنسرح وغيرها ، فهي بحور الفحول ، فيها سمات الفحولة وجهوريتها وصلابتها ، وفيها من الجسد المذكر كونه لايقبل التمدد والتقلص وكونه عموداً راسخاً لاينزف ولاينتفخ ، ولقد حاول الشعراء الرجال إدخال البحور المذكرة إلى القصيدة الحديثة فلم يفلحوا في ذلك ، فالقصيدة الحديثة تأبى التذكر وهي في صدد التأنيث)[5] .

اذن: هل اكتفت نازك بالقسمة على اثنين ؟

أن نازك الملائكة لم تكتفِ بتقاسم بحور الشعر مع الفحول وإنما نقدت وأقامت نقدها على نظرية أسست لها بناءً على حصتها من ارثها في البحور الستة عشر ، وهذا ما فتح الباب عليها واسعاً من الانتقادات ، وصل إلى حد تسفيه القضية وتسطيحها ، ثم نفي الريادة عنها (فأن تكون المرأة شاعرة أهون على الفحولة من أن تكون منظرة وناقدة وصاحبة رأي وفكر ونظرية)[6].

- والغذّامي في كتابه النقد الثقافي يقوم بقراءة دقيقة وإبداعية يتناول فيها (بنظرة نقدية حداثية علاقة اللغة / الشعر هنا ، بالجنس ،ذكر /أنثى ويؤسس تأسيساً آخر للفتح الشعري الذي أحدثته نازك الملائكة في مسار الشعر العربي اذ كتبت قصيدتها الكوليرا ، عن الكوليرا التي اجتاحت مصر في أواخر الأربعينات من القرن الماضي) [7] وقد اتخذ القصيدة العمودية هنا باعتبارها معقل من معاقل

---

١ _ تأنيث القصيدة والقارئ المختلف ، عبد الله محمد الغذامي ،١٧ .

٢ _ دوائر الخوف ،٣٦ .

٣_ النقد الثقافي ، عبد الله الغذامي ،٧٩ .

٤_ النقد الثقافي ، عبد الله الغذامي ،٧٩

٥ _ النقد الثقافي ،٢٤٣

٦_ تأنيث القصيدة ،١٧

٧_ م٠ن ٠

الفحولة ، الذي هدمته امرأة (وفي هذا تكثيف لعملية الهدم وتركيز لها ،إذ لايكفي فقط إن هذا الرمز الرجولي قد تهدم ، وانما إن يتم ذلك الهدم عن طريق أمرأة بكل مدلولات الكلمة في قاموس الذكورة اللغوية)[1] . ونحن هنا نتساءل مع الغذامي هل كان مصادفة أن يصدر ديوان نزار قباني في نفس المدة التي ظهرت بها دعوة نازك إلى الكتابة على طريقة شعر التفعيلة ؟ لو لم تكن تلك الأنثى قد استفزته وهددت تفرد الرجال /الفحول ربما لما وجدنا تلك المغالاة في ديوانه وهنا علينا أن نتنبه (إلى ما يمكن أن يفعله النسق المهيمن بسطوته الضاربة لمواجهة إي مسعى لكسر الهيمنة النسقية ،ولذا فأن ظهور ديوان نزار متزامناً مع ظهور نازك والسياب سيكون الرد ألنسقي على محاولة زعزعة سلطة النسق ألفحولي بسماته)[2] ٠لقد بقيت اللغة على مدى عقود من الزمن توهمنا بأن الخطاب هو خطاب موحد للذكر والأنثى طالما أن الأنثى منزوية تحت أجنحة الذكر ، إما في اللحظة التي تحررت فيها المرأة من ذلك الخطاب المتجاوز لوجودها ولحقها من الضمائر المؤنثة في اللغة أصبح الرد واجباً دون تمهل أو تفكير فنازك لم تؤنث كامل اللغة كما كانت مذكرة بالكامل وإنما أنثت النصف وتركت النصف الأخر ٠

يريد الغذّامي هنا إن يؤكد حقيقة إن القضية تتجاوز الأدب والنقد إلى الثقافة التي رسخت هذه القناعة ، وهو ما تناول دراسته دراسة مستفيضة في كتابيه ، النقد الثقافي ، والمرأة واللغة . لكن على الرغم من إسهام الغذّامي ونقاد آخرين في الاحتفاء باختراقات أنثوية أحدثتها نازك الملائكة ومن جئن بعدها في مسار القصيدة التقليدي ، وفي ما أطلق عليه الغذّامي تحطيم حائط الفحولة الذي جسدته القصيدة العمودية ، إلا إن مفهوم الذكورة ما زال حاضراً بقوة ، بل أكثر مجاهرةً (في تخصيص الشعر كمساحة ذكورية في المقام الأول يوصف فيها التفوق والتجلي بوصف يحقق اكتمال عناصر الرجولة بمعناها التناسلي .وبديهي القول انه كلما توغل الاحتفاء بالشعر على وفق هذه المعطيات ، ابتعد عن مطامح الأنثى في تبوأ مكانة متقدمة في هذا المحفل حتى ولو تحققت كشاعرة في أعلى المستويات)[3].

لقد كان مشروع النقد الثقافي يتجه إلى (كشف حيل الثقافة في تمرير أنساقها تحت أقنعة ووسائل خافية ، واهم هذه الحيل هي الحيلة الجمالية التي من تحتها يجري تمرير اخطر الأنساق)[4]ونحن نعلم جميعاً ما يختبئ خلف قصائد نزار ذات المظهر الجمالي فالعنصر الثقافي ألفحولي تشكل تدريجياً إلى أن أصبح عنصراً فاعلاً و(تمكن من التغلغل غير الملحوظ وظل كامناً هناك في أعماق الخطابات وظل ينتقل ما بين اللغة والذهن البشري فاعلاً أفعاله دون رقيب نقدي لانشغال النقد بالجمالي أولا ثم لقدرة العناصر النسقية على الكمون والاختفاء)[5]ونحن في هذا الوقت بالذات أحوج ما نكون إلى التخلي عن القناع الجمالي الذي تتقنع به اغلب النصوص التي تخفي انساقاً مضمرةً وإزاحته جانباً والنظر إلى تلك العيوب بعين النقد البناء لنصوب نحوها بالدراسة والمعالجة ،وقبل كل ذلك يجب أن نتحلى بالشجاعة الكافية للاعتراف بوجود تلك العيوب والخوض في ذلك المضمار ، وان نتخلى عن تلك الطريقة التي ننقد بهابعضنا ، فهو برأيي نقد هدام لايبني ولا يثمر وان نبدأ من حيث بدا الغرب وليس من حيث انتهى بحداثته وأسس لها على أساس الإعلاء شأن الإنسان باعتباره قيمة عليا في اي مجتمع ممثلاً بفكره ٠ويؤكد الغذامي أن الحدث لم يكن عادياً ، وهذا ما جعل ردة الفعل عليه أكثر من دفاع عن لقب ومكانة ، وقد كانت رد نزار أنانيا متفرداً حتى مع الرجال فهو يصرح انه لايقيس نفسه بأحد انه يقيس نفسه بنفسه ، ويؤكد الغذامي أن العلة ليست فيه لأنه نتاج نسقي للثقافة وان هذه الفحولة ليست من نتاج نزار بقدر ما هي موروث ثقافي ويسميه المؤلف الفرد في تمييزه بين مؤلف فرد وآخر ذو كيان رمزي ، المؤلف الفرد هو نتاج لمؤلف الثقافة فالثقافة مؤلف مضمر ذو طبيعة نسقيه تلقي بشباكها غير المنظورة حول الكاتب فيقع في اسر مفاهيمها الكبرى،و(للثقافة وسائلها الخاصة في الدفاع عن أنساقها المهيمنة ، ولاشك في إن النسق ألفحولي هو ابرز الأنساق الثقافية قوة وهيمنة . لذا فأن هناك علامات كثيرة تشير إلى مساعٍ حثيثة لحجب الأنوثة عن الشعر ، ومنع التأنيث من أن يلامس الخطاب الشعري)[6]

فارتباط المفردة بالأنوثة اقرب إلى الفكرة كونها تمت على يد أمرآة لها من الشجاعة ما تؤسس قصيدة لها سمات الأنوثة ويتبعها الرجال في ذلك الفعل الذي له (دلالات عميقة حيث تظهر المرأة فاعلة ومؤثرة في صناعة الخطاب وفي فتح نهج جديد ، حيث بدا الخطاب ألفحولي في موضع التحدي والمسائلة) [7] ٠ ولو تتبعنا دلالات الفحولة الشعرية ، لوجدناها تقودنا في واحدة من تفسيراتها إلى (الصورة التي تعد اللغة عذراء بكر يفض الشاعر –الفحل – بكارتها ، وهو المعادل التخييلي لاكتشاف آفاق تعبيرية جديدة أو الولوج إلى مساحات جديدة في البنيان الشعري معتمداً على توليدات اللغة والمعنى)[8] ٠ وإذا كان هذا الإدراك يعبر عن مدى حساسية الذوق الشعري ، واهتمامه بالصورة الشعرية إلا إن وصفه بهذه الطريقة التي تعبر عن ثقافة البيئة التي صنعت الفحل ، وتمسكت به ودافعت عنه قد أعاق فرصة إنتاج مفهوم آخر يعبر بطريقة اشمل عن الشعر ويستوعب براعة الشاعر بدون النظر إلى جنسه ٠ لان تعبير الفحولة يجسد المعنى في الشعر ويطلق عليه مفهوم التفوق الذي أسس له على مدى عقود من الزمن ، فهذه المسألة وغيرها كثيرة من صلب ثقافتنا والتي ربطت مفاهيم أساسية في اللغة والأدب ربطاً وثيقاً بالجنس ، ذكر / أنثى ، ورسمت بناءً متكاملاً أحاط بالمفهوم ليحميه من أي طارئ مشارك ، وهذا ما جعل اللغة في أحيان كثيرة عاجزة عن تناول الكثير من الظواهر الإبداعية ، (وفي أحيان أخرى اقل مقدرة على التصالح مع أوضاع تفرضها مقتضيات التطور والتجدد الذي يحدث في حياة الناس ، وهو ما خلق حالة من الفراغ اللغوي داخل الشرائح التي تحمل هذه اللغة،مما جعلها مضطرة إلى التعامل مع لغات أخرى أكثر مقدرة على التعبير عن الأفكار ، وأكثر تقبلاً لما يتولد من مفاهيم ٠ وهو وضع نعيشه بصورة يومية)[9] ٠ هذه واحدة من الإشكالات العميقة التي تقف إمام الإبداع وإنتاج المعرفة ، بل إمام انطلاق الخيال وتكبح كل صورة مبدعة،ونحن أخيرا نسأل :

---

[1] - النقد الثقافي ، ٢٤٣ ٠

[2] - تأنيث القصيدة ، ١٧ ٠

[3] - م ، ن ٠

[4] النقد الثقافي ،٢٤٣ ٠

[5] _ النقد الثقافي ،٧١ ٠

[6] - *النقد الثقافي* ،٢٤٨ ٠

[7] - م ن ٠

[8] - م ن ٠

[9] _ دوائر الخوف ، ١٣٦ ٠

هل من الممكن أن نشترك في إنتاج لغة تتعامل بعدل معنا جميعاً ، ويكون لنا نصيب منها بحيث يتم تلقي نتاجنا الفكري كنتاج أنثوي ويدخل الضمير المؤنث إلى جانب الضمير المذكر في صنع الخطاب ؟ الم نصل إلى المرحلة التي يمكن فيها للرجل من المبادرة بالأخذ بمبدأ الضميرين ؟

-وهل من الممكن الاستغناء عن المفهوم ، وصياغة مفهوم آخر يتمتع بشمولية أوسع بحيث يستوعب نتاج الرجل والمرأة على حدٍ سواء وتقييمه على أساس الإبداع وليس الجنس ٠

-واخيراًهل نستطيع القول أن الفتح الشعري الذي تم على يد امرأة هو الذي ولد ما يعرف اليوم بالأدب النسوي ، لتخط المرأة طريق موازٍ لطريق الرجل؟

المصادر

١-تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، إحسان عباس ، الأردن ، عمان ، دار الشروق الطبعة الثانية ، ١٩٩٣ ٠

٢- تأنيث القصيدة ؤوالقارئ المختلف ، عبد الله محمد الغذامي ،بيروت،المركز الثقافي العربي الطبعة الثانية ، ٢٠٠٥ ٠

٣- ثقافة الفحولة ، محمود ثامر القرني ، شبكة المعلومات ٠

١- دراسات نقدية ، الدكتور محمود عبد الله الجادر ، العراق ، بغداد ، دار الحرية للطباعة والنشر ، ١٩٩٢ ٠

٥-دوائر الخوف ، نصر حامد أبو زيد ، بيروت،المركز الثقافي العربي الطبعة الرابعة ، ٢٠٠٧ ٠

٦- فحولة الشعراء عند الأصمعي /مفهومها وقاعدتها وتطبيقها د٠ عبد الكريم محمد حسين ،سوريا ،دمشق ، دار كتان للطباعة، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٥

٧-الفحولة حين تتحول إلى احد مقاييس الأدب العربي ،مهند صلاحات ، شبكة المعلومات ٠

٨- لسان العرب ، ابن منظور ،الجزء الخامس، مادة فحل ٠

٩-مجلة الأقلام ، العدد الأول ،كانون الثاني/ شباط/ آذار ،٢٠٠٩ ،مطبعة دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد٠

١٠- النقد الثقافي ، عبد الله محمد الغذامي ،بيروت،المركز الثقافي العربي الطبعةالاولى ، ٢٠٠٠ ٠